اصنع لهم معجماً

بقلم: محمد فريد الشريف
مصر

التقى رجلان في طريق فسأل أحدهما الآخر:

من أنت؟

قال:

- خمس وعشرون.

- ما اسمك؟

- مدرس.

-ما عملك؟

علي عبدالكريم.

❖❖❖

هذا الحوار البليغ: صورة دقيقة لما أسمعه حولي كل يوم.. لم أستعمل في نقله مرآة محدبة ولا مقعرة.. نقلته كما هو.. بمرآة كالتي تنظر فيها كل يوم قبل أن تخرج من بيتك.

وقد شككت مرة أن فيه خللاً ما.. وأنه يحتوي على جُمل.. غير أنها لا تفيد.. وأن المجيب يجيب على غير ما يُسأل عنه.. وأن هذا تركيب لا يستقيم مع قواعد اللغة.. أو على الأقل.. اللغة التي أعرف.

حملت شكوكي جميعاً، وذهبت إلى فتى من قريتنا خرج إلى القاهرة في طلب العلم، ثم بلغنا أنه قد فتح عليه من العلم كمثل طوفان نوح -عليه السلام- فهو فيه تتلاطم به الأمواج، حتى لقد بلغ من علمه أن أوكلت إليه الدولة رئاسة الصفحة الأدبية في صحيفتها الرسمية وهو بعد في ريعان الشباب. والدولة -و كما يعلم الجميع - لا توكل العمل إلا إلى أهله.

دخلت عليه مكتبه فإذا أمامه رجل جليل مهيب، قد كور على رأسه عمامة وأرخى ذؤابتها بين كتفيه، وإذا هما في حوار قد اشتد، فألهاني ما رأيته عن المسألة التي قدمت لها، وإذا صاحبنا يقول لصاحبه:

- ولكنك تعلم أن هذا يخالف المذهب الجديد في الأدب.

- وما المذهب الجديد؟

- ما بعد الحداثة.

- وأي شيء هو «ما بعد الحداثة»؟

- هو مذهب يرى أن..

- أسألك عن اسمه.

- اسمه «ما بعد الحداثة» يا مولانا...

- يا أستاذ.. إذا سألك أحد عما بعد «شبرا» ستقول له: «قليوب» وأنا

أسألك عما بعد الحداثة فتقول: هو ما بعد الحداثة. أليس في مذهبكم هذا «قليوب»؟ أم أن الجغرافيا عندكم مختصرة في «ما بعد شبرا»..؟؟

❖❖❖

سأل ملك حكيماً: كيف أصلح أمر الأمة؟

قال الحكيم: اصنع لهم معجماً.

قال الملك متعجباً: أسألك عن الإصلاح فتكلمني عن المعاجم؟؟!!

فرد الحكيم: إذا صنعت لهم معجماً وحفظوه: علم كل امرئ معنى ما يقول، وأجاب عما يُسأل عنه، وقل الخلاف؛ لأنه إنما ينشأ عن الجهل، وذهبت الشحناء لأنها بنت الخلاف، وإذا أمرتهم بأمر لم يتأولوا فيه غير ما تريد، ولم يُنزله كل امرئ منهم على هوى يراه من حيث يُوهمك الاستجابة لك.. وفرغوا من بعد للعمل على قلب رجل واحد.

❖❖❖

إذا كانت اللغة إنما جعلت للتواصل بين الناس، فإن الخلل في التواصل دليل على خلل في اللغة.

هذه قاعدة لابد أن تكون قريبة منك حتى ننتهي مما نحن فيه.

واعذرني - أخي القارئ - إن سألتك الصبر على ما أنت فيه من البلاء حتى تفرغ منه، فهو والله ثقيل على قلبي ثقله على قلبك، ولولا أنه بلاء لابد منه لما وجدت من نفسي طاقة للخوض فيه..

والوحدة الأولى للغة: الكلمات التي تتركب منها الجمل.. وإذا لم تكن هذه الكلمات ذات معان يتفق عليها الجميع فإنك لن تستطيع بناء جملة ذات معنى.

لنفرض مثلاً أن لفظ «الحذاء» يطلق عند قوم على: «الشيء الذي تلبسه في قدميك»، وهو عند آخرين: «الشيء الذي تغطي به رأسك».

فهل تظن أن حواراً يمكن أن يتم بين اثنين: هذا مبلغ التباين بينهما!!

هذه مسلمة أولى.

وإذا أردت أن تفهم جملة ما فإن السبيل إلى ذلك أن تفهم معنى كل كلمة فيها.. ثم تدرك معنى هذه الكلمات مجتمعات في تركيب خاص يسمى: الجملة.

وهذه مسلمة ثانية.

وأظنك تقول الآن: يا صباح الملل!!

فاستعرض إذن معي قائمة بما نسمع كل يوم، قبل أن يبلغ منك الملل غايته، ولنعرضه على هذا المنهج البدهي.. ثم لننظر إلى النتائج..

«حوار السلام»، «اتفاقيات السلام العربي الإسرائيلي»، «السلام العادل الشامل»، «الأرض مقابل السلام»، «خيار السلام الاستراتيجي»، «ثقافة السلام»، «مبادرة السلام العربية»، «مؤسسات المجتمع المدني»، «تداول السلطة»، «الانتخابات النزيهة»... وهلم جرا... حتى تصل إلى المصطلح اللطيف الظريف الساخر: «المواطن العربي الحر»!!

هل تريد مزيداً من الألفاظ.. فإن العشرة منها بربع جنيه..

هذه الألفاظ جميعاً لابد أن تكون ذات معنى.. وإلا لكنا نعيش في عالم لا معنى له من البعثرة المتكررة.. ولكن.. حاول أن تدرك معناها بالطريقة البدائية التي شرحناها من قبل وسترى أنك تدور وتدور.. ثم لا تجد في يدك شيئاً..

فالسلام العادل الشامل لا يمكن أن تفهمه إلا إذا علمت معنى «السلام» و«العادل» و«الشامل»، واتفق المجتمعون فيما يسمى «خندق السلام» (وهذا أيضاً مصطلح، فأضفه إلى قائمتك) على معنى واحد لها.. غير أنك تنظر فإذا لكل محاور فهمه الخاص لمعاني هذا الكلام كلمة وجملة.. نحن نتحدث بألفاظ لا نعرف معناها.. ثم نتحاور في قضايا لم نتفق على بدهياتها مسبقاً.. وتشيع بيننا مصطلحات تخرج فجأة، وكأنما ولدت سفاحاً ليس لها سلالة لغوية تعود إليها.

كيف تختلف الآراء هذا الاختلاف العبثي.. وتتعدد معاني اللفظة الواحدة بتعدد الناطقين بها.. حتى لقد أصبحنا ولو قال القائل: «لا إله إلا الله» وسمعه خمسة نفر.. لكان لهذه الكلمة الشريفة خمسة معان في خمسة رؤوس!!

أصبحنا نتناقش في البدهيات، ثم لا نصل إلى قرار..

تقول لأحدهم: «تشرق الشمس كل صباح». فيقول: هذا رأيك الخاص.. ولكني أرى رأياً آخر.. واختلاف الرأي لا يفسد للود قضية»..!!

ويناقشك أحدهم في الإسلام ساعة كاملة، حتى إذا سألته عن

معرفته به وجدت إسلاماً غير الذي تعرف، ونسخة من المصحف الشريف غير التي تقرأ منها كل يوم..!!

وقد ذكر العرب من قبل أن الأحمق: يرى، فيدرك غير ما يرى، ثم يقول غير ما أدرك، ثم يكتب غير الذي قال.

فهل بلغ بنا الحال أن نبحث لكتابنا عن تعريف جامع مانع فلا نجد غير وصف العرب للأحمق؟؟!!

والغريب أن هذا الداء لا يصيب منا إلا الفئة التي تحسن القراءة والكتابة.. فأنت لا تجد عند أحد من أسيادنا الفلاحين من يناقشك في أمر بدهي، إنما يسألك الفلاح عما يجهل.. أما البدهيات فذلك - كما قال عمر بن عبدالعزيز: أمر فرغ منه ربك..

❖❖❖

اختلاف معاني الألفاظ، ثم الخلاف في دلالة التراكيب داء يصيب قلب اللغة.. وهو في اللغة والتفكير كالسرطان في الجسد، وكما تتكاثر خلايا السرطان بلا قانون ضابط.. تتكاثر ألفاظ اللغة بلا أصل صحيح..

واستخدام لفظة في غير موضعها الصحيح خيانة لها.. ثم خيانة للأمة التي اتفقت على وضعها.. وهو لا يقوم إلا على نية فاسدة.

ولنأخذ على ذلك مثالاً معلوماً للجميع:

كلمة «الطوارئ»: أصلها اللغوي: طرأ عليهم، أي: أتاهم من مكان، أو خرج عليهم منه فجأة، وأمر طُرآني: بالضم: لا يدرى من حيث أتى. (نقلاً عن: القاموس المحيط).

فالمعنى يدور إذن حول: المفاجأة.. ولهذا تقول: هذا أمر طارئ.. وطرأ علي رأي.. وما شابه ذلك.

أخذ هذا اللفظ ونقل إلى معنى آخر لا أعلمه، وإذا كان هنالك من يعلمه فليخبرني به، وأصبح بين عشية وضحاها: «قانون الطوارئ»... واستمر هذا القانون يحكم البلاد أعواماً متطاولة.. فإذا سجن شريف فباسم «قانون الطوارئ»، وإذا قمعت الحريات فباسم «قانون الطوارئ»، وإذا تركت الجامعات منتدى لكل شيء من حفلات عرض الأزياء.. إلى كافتريات عرض المشاعر، ومنع الشباب والفتيات فيها من الحديث عن آلامهم وآمالهم باعتبار هذا سياسة.. فباسم «قانون الطوارئ».. حتى لقد أصبح هذا الشيء المفزع رجلاً من لحم ودم ضخم الجثة، مفتول العضلات، يدركك حيث كنت.. ويمنعك كل ما أردت..

فما الذي يجمع بين كلمة«طرأ» التي تدل على المفاجأة والتغير وبين «قانون الطوارئ» الذي أصبح دلالة كبرى على الثبات والدوام.

❖❖❖

هذا التحوير والتزوير للألفاظ والمعاني لابد أن يتوقف..

غير أن هنالك قوماً فرغوا حياتهم لذلك، ونذروا أنفسهم لدوامه.. ولن نعدم كل يوم لفظاً حُرف عن أصله.. كما أصبح الشهيد على أرض فلسطين «منتحراً» و«الخائن للأمة» «زعيماً».. ولست كاذباً إن قلت: إن كثيرا من صحفنا ومجلاتنا وإذاعاتنا تسهم في ذلك!!

فما أسباب ذلك؟؟ وما العمل؟؟!!

هذا سؤال يحتاج إلى أن نستأنف مقالاً جديداً.. وأن تستأنف أنت نية صادقة.. وأن تقبل الأمة على عمل حقيقي.. حتى لا تكون لنا صورتان: صورتنا المزخرفة أمام أنفسنا.. وصورتنا الحقيقية في مرآة صادقة.. وقد رووا أن أعرابياً خرج من بادية قومه قاصداً حاضرة من الحواضر، فاجتاز بخربة، ورأى مرآة قد ملّ منها أهلها فرموها.. فرفعها إلى وجهه - وكان دميم الخلقة - فلما أبصر شناعته حتى رماها من يده، وقال: والله ما رماك أهلك من خير!! ■